المقدمة

هذا الكتاب امتداد لجهد بحثي بدأ في أثناء إعدادي لرسالة الدكتوراه التي حصلت عليها من جامعة فريدرش – إليكسندر في ألمانيا حول استخدامات الإنترنت في الاتصال السياسي، ونشرت باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٥ في كتاب تحت عنوان «Uses and Effects of New Media on Political Communication in the United States of America, Germany, and Egypt». وللأسف لم أتمكن من ترجمة هذا الكتاب، والذي كان قبل اثني عشر عامًا بمثابة إرهاصات أولى للدراسات عن استخدام الإنترنت في الواقع العربي، وقد واكب بدء الاستخدامات في الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتبر رائدة في استخدامات الإنترنت وتطبيقاتها في العملية السياسية، كما واكب الدراسات الألمانية في هذا المجال.

والمفارقة أن استخدام الإنترنت في المجال السياسي في مصر بدأ في وقت متزامن مع كلتا الدولتين، وإن اختلفت أنماط الاستخدام والتأثيرات بما رشحها لأن تصنف في الفئة الأقل في معدلات الاستخدام وتأثيرات الإنترنت السياسية في هذا الوقت. فقد استخدم المرشحون والأحزاب السياسية الإنترنت في التواصل السياسي منذ عام ٢٠٠٤، وتطور استخدامه في المجال السياسي وبخاصة بعد ظهور تطبيقات شبكات التواصل الاجتماعي (Social Networking Sites (SNSs) والتدوين الإلكتروني حتى بلغ ذروته في ثورتي ٢٥ يناير ٢٠١١، و٣٠ يونيو ٢٠١٣؛ حيث لعبت وسائل الاتصال الحديثة، وأهمها شبكات التواصل الاجتماعي Social Network Sites دورًا مهمًّا في التوعية والنقاش والحشد والمراقبة للعملية السياسية، في أثناء ٢٥ يناير وبعده، وأصبحت الموضوعات والقضايا المتداولة في شبكات التواصل الاجتماعي مكونًا أساسيًّا في النقاش العام Public Discourse، إما من خلال تداولها بين أعضاء الساحات الافتراضية، أو نقلها وتداولها عبر وسائل الإعلام التقليدية.

وقد تواصل اهتمامي البحثي باستخدامات الإنترنت في المجال السياسي، حيث أجريت عديداً من البحوث وشاركت في مؤتمرات دولية، واقترح عليَّ بعض الأصدقاء والزملاء إصدار كتاب لمتابعة الظاهرة وتجلياتها في الواقع العربي، خاصة بعد ما عرف بثورات الربيع العربي، والتي شهدت حضوراً طاغياً ومؤثراً لوسائل التواصل الاجتماعي، لكنني فضلت الانتظار حتى تستقر الظواهر الاجتماعية والسياسية المرتبطة بثورتي ٢٥ يناير و٣٠ يونيو، وتستقر معها استخدامات وسائل التواصل الاجتماعي في المجال السياسي المصري.

الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ يواكب الدراسات الغربية في الأفكار البحثية والمناهج والأطر النظرية، ويعقد الكثير من المقارنات لاستخدامات الإنترنت السياسية ووسائل التواصل الاجتماعي في المجتمعات الغربية، وأيضًا في بعض الدول الأسيوية والأفريقية. ولاشك أن هذه الرؤية المقارنة تساعد في الاطلاع على هذه الظاهرة في سياقات متباينة؛ مما يمكن من بلورة توجهات بحثية تتواكب واحتياجتنا المجتمعية وتستفيد من الرؤى المطروحة في هذه الدراسات.

ويغطي هذا الكتاب جوانب مختلفة من استخدامات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، مثل: الإنترنت ووسائل التواصل في الحملات الانتخابية، الحكومة الإلكترونية في ضوء الديموقراطية الإلكترونية، اعتماد المواطنين على الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي للحصول على المعلومات السياسية، وتأثيرات الإنترنت ووسائل التواصل الجتماعي على المشاركة المجتمعية والمشاركة السياسية. ويتناول الكتاب فترات زمنية مختلفة ويضم دراسة تتبعية لاستخدامات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي في الانتخابات المصرية ٢٠١٠-٢٠١٤. وقد غطت الدراسات التي قدمها هذا الكتاب الفترة من ٢٠٠٧ حتى ٢٠١٤ على مستوى دراسات الباحث، وإن كان قد أضيف لها الدراسات الآنية التي أجريت في سياقات اجتماعية وسياسية واقتصادية مختلفة حتى ٢٠١٦.

ويأتي هذا الكتاب في وقت تتعرض فيه الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي كوسيلة للاتصال السياسي للكثير من النقد بعد الادعاء بوجود انتهاكات لقيم الحيادية والمنافسة وجنوح نحو الدعاية السياسية في تداول والتفاعل مع أخبار وموضوعات غير صحيحة «أخبار وهمية Fake News» ترتبط بالسياسيين والأحزاب والمرشحين، ما اعتبر سوء استخدام قد يهدد القيم الديموقراطية. وحظيت هذه القضية بالكثير من الاهتمام في الانتخابات الرئاسية الأمريكية ٢٠١٦ (ترامب – كلينتون)، وما زالت أصداؤها تتردد في الكثير من الدول الغربية وأهمها فرنسا وألمانيا التي تنتظرهما انتخابات عامة في ٢٠١٧. وتدرس الحكومة الألمانية في هذا السياق تجريم الأخبار الزائفة المتداولة عبر وسائل التواصل الاجتماعي التي قد تؤثر سلبًا في مخرجات الانتخابات العامة ٢٠١٧.

وعلى الرغم من هذا الجدل؛ فإن الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي تلعب دورًا مهمًّا في الاتصال السياسي؛ حيث تتيح هذه الأدوات التواصلية مصادر متعددة للمعلومات، وتوفر ساحات للنقاش العام حول القضايا السياسية، على أسس من الحرية والمساواة، مقارنة بوسائل الإعلام التقليدية. وتتزايد أهميتها بالانتشار الواسع لاستخداماتها وخصائصها التفاعلية وقدرتها على تمكين المستخدمين من أدوات جديدة للمشاركة المجتمعية والسياسية. هذه الأهمية المتزايدة لشبكات التواصل الاجتماعي وتأثيراتها في مخرجات العملية السياسية أصبحت مجالاً خصبًا للباحثين في مجال الاتصال السياسي.

ويتنامى الاهتمام بدراسات الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي بعد أن كشفت البيانات أن استخدام الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي في مصر تتطور بشكل تصاعدي؛ حيث تشير الإحصائيات إلى أن معدلات استخدام الإنترنت في مصر حتى يونيو ٢٠١٦ بلغت حوالي ٣٥ مليون مستخدم أي ما يوازي ٣٩٪ من عدد السكان تقريبًا، مقارنة بعدد ٤٥٠ ألف مستخدم فقط عام ٢٠٠٠. وتبلغ حصة مصر من مستخدمي الإنترنت في إفريقيا ١٠,٢٪، حيث تحتل المرتبة الثانية في عدد المستخدمين بعد

نيجيريا التي تضم نسبة ٢٨,٥٪ من عدد المستخدمين على مستوى القارة[١]. كما تشير الإحصائيات إلى أن معدلات استخدام وسائل التواصل الاجتماعي تتزايد أيضًا بشكل مطرد. فعلى سبيل المثال، تشير البيانات إلى أن عدد مستخدمي الفيس بوك في مصر وصل إلى ٣٢ مليون مستخدم بنهاية يونيو ٢٠١٦، مقارنة بـ ٤,٥ مليون مستخدم في ٢٠١٠، وهي معدلات مرتفعة؛ إذ تساوي ضعف عدد المستخدمين في نيجيريا (١٦ مليون مستخدم فقط للفيس بوك)[٢].

وعلى المستوى الدولي يمكن رصد ثلاثة اتجاهات أساسية في الدراسات الخاصة باستخدامات وتأثيرات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي في المجال السياسي. الاتجاه الأول: يمثل مجموعة من الدراسات التي أثبتت دورًا مهمًّا للإنترنت وتطبيقاته في الاتصال السياسي، من حيث زيادة المعرفة السياسية وخلق آليات للتفاعل بين المواطنين وبعضهم ببعض، وبينهم وبين السياسيين، وزيادة المشاركة المجتمعية والسياسية في سياقات معينة. كل ذلك دعا إلى الافتراض بأن الإنترنت أسهم في حدوث تغيير سياسي سيقود حتمًا إلى تحسين الممارسة الديمقراطية، وهو ما أطلق عليه موجة «التفاؤل التكنولوجي Technological optimism».

الاتجاه الثاني: وهو مجموعة الدراسات التي تقلل من أهمية الوسائل التكنولوجية ودورها الإيجابي في إحداث التغييرات السياسية؛ حيث يرى هؤلاء أن التكنولوجيا قد أثرت فقط فيمن لديهم القدرة والكفاءة على استخدامها والتواصل من خلالها، وأنها عززت قدرات أولئك الناشطين سياسيًّا، بينما من ظلوا خارج نطاق الاستخدام والخاملين سياسيًّا لم تتأثر أحوالهم الاجتماعية والسياسية نتيجة ظهور هذه التكنولوجيا. وتتمثل أهم الحجج التي تساق في هذا الإطار، في أن التغيير الاجتماعي لا يمكن أن يعزى فقط للتكنولوجيا، ولكنه يمكن أن ينسب إلى متغيرات وعوامل اجتماعية وسياسية وثقافية، وهذه التوجه البحثي لهذه الموجة يطلق عليه «التشاؤم التكنولوجي Technological pessimism».

الاتجاه الثالث: الذي يرى أن للتكنولوجيا دوراً باعتبارها متغيراً ضمن المتغيرات المجتمعية الأخرى التي تتفاعل معها، وليس له تأثيرات إيجابية أو سلبية شأنها شأن كل وسائل الاتصال التي سبقتها. وأنها تحتاج إلى مزيد من الوقت ومزيد من الدراسات حتى يمكن تقدير معدلات استخدامها ومدى تأثيرها، وهو ما يطلق عليه «الحيادية التكنولوجية Technological neutral».

يناقش هذا الكتاب الاتجاهات الثلاثة ويقدم رؤية نقدية حول تطور الدراسات الدولية في هذا المجال، كما يطرح مسارات بحثية يمكن أن تساعد في تطور مجال الدراسات الخاصة باستخدامات التكنولوجيا ودورها في التغيير الاجتماعي.

ويأتي هذا الكتاب في خمسة فصول ومقدمة، يقدم الفصل الأول رؤية نقدية لتطور دراسات الإنترنت واستخداماته في المجال السياسي اعتماداً على مجموعة واسعة من الدراسات والبحوث المعاصرة والتي اتسمت بتنوع الأطر النظرية والأدوات المنهجية واختلاف السياقات السياسية والاجتماعية والثقافية. ويناقش الفصل الثاني الاستخدامات السياسية لشبكات التواصل الاجتماعي في الانتخابات المصرية في ضوء نظرية المجال العام، اعتماداً علي دراسة ميدانية.

ويقدم الفصل الثالث دراسة تتبعية لتطور استخدامات وتأثيرات الانترنت في أربعة انتخابات برلمانية ورئاسية في مصر (٢٠١١، ٢٠١٠، ٢٠١٢، ٢٠١٤)، وذلك في ضوء نظرية «الحتمية التكنولوجيةDigital Determinism». وأتمنى أن تكون هذه الدراسة محاولة جادة لسد النقص في الدراسات التتبعية في الدراسات والبحوث العربية. أما الفصل الرابع فقد سعى إلى اختبار فعالية استخدامات الإنترنت كوسيلة للتواصل السياسي في العمل المحلي بالمحافظات المصرية من منظور الديموقراطية الإلكترونية E-democracy. هذا وقد قدم الفصل الخامس دراسة كيفية حول مدى تأثير الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي على نظام التواصل السياسي في المحليات على مستوى القرى ما يضمن استكشاف الظاهرة في مستويات مجتمعية مختلفة تبدأ

بالعاصمة وتنتهي بالمحافظات والقرى؛ مما يساعد في تقديم رؤى محلية – قومية مقارنة بحالات دولية.

وفي النهاية أرجو أن يساهم هذا الكتاب في مجال دراسة علاقة التكنولوجيا بالتغير الاجتماعي بصفة عامة، ودراسات استخدامات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي في المجال السياسي بصفة خاصة. كما أرجو أن يساهم هذا الكتاب وبشكل نقدي في تطوير النقاش العام حول هذه الظاهرة.

وما توفيقي إلا بالله.....

القاهرة

نوفمبر ٢٠١٦

1 Ministry of Communications and Information Technology. (2010-2014). Egypt ICT Indicators. Accessed December 2016, from http://www.egyptictindicators.gov.eg/en/Pages/default33.aspx

[2] Internet and World Stats. (2016).Internet Usage Statistics for Africa. Accessed, December 12, 2016, from http://www.internetworldstats.com/stats1.htm

obeikan.com